الفصل الرابع عشر

قال الشيخ : الآن وصلنا مقام خلع النعلين ما دمنا قد انخلعنا أولاً عن جسدنا لما ثبت كشفاً أن هذا الجسد جسم كلي ، ثم انخلعنا ثانياً عن نفسنا لما ثبت كشفاً أن النفس صورة ، والصورة معقولات ، والمعقولات سموات ، والسموات ملائكة ، والملائكة أسماء ، والأسماء لله سبحانه .

وإليك هذه الرؤ يا التي رأيتها . . رأيتني مستقلاً سيارة إلى حي المهاجرين حتى إذا وصلت إلى موقف آخر الخط اكتشفت عدم وجود حذائي في قدمي . وبحثت وفتشت عبر المقاعد وتحت المقاعد ، وكانت برفقتي شقيقتي واسمها فاطمة ، ثم كلمت السائق فشكوت له ما بي قائلاً : أنت لا تعلم ما قيمة هذا الحذاء عندي . لقد ظللت انتعل حذاء قديماً طوال سنوات حتى تمكنت من شراء هذا الحذاء ،بل إنني من فرط انفعالي جعلت أبكي فإذا وجه السائق ينقلب وجه امرأة ، وإذا بهذه المرأة تضع على رأسها حجاباً وإذا عينها الواحدة عوراء . . ولقد رقت المرأة ـ السائق لي فمدت يدها إلى جيبها وأعطتني مالاً لأستبدل بحذائي حذاءاً جديداً . والتعبير هو رحلة المعراج من جديد ، والمعراج سفر وهو طريق ، طريق الهجرة إلى الله ، ولهذا كانت السيارة متوجهة إلى حي المهاجرين ، والوصول إلى آخر الخط انتهاء رحلة المعراج بالوصول إلى الذات ، والذات كلية وفاعلة ، ولهذا افتقدت حذائي أي نعلي فما وجدتهما . وكنا تحدثنا كيف يفقد السالك في معراجه كلاً من جسمه ونفسه أو دنياه وآخرته ، إذ الدنيا

كناية عن الفعل وآلاخرة كناية عن الصفة ، فلا فعل ولا صفة إذن للمهاجر إلى الله ، ويقال لهذا المقام الفناء ، وهو مقام شديد ثقيل .

فالسالك لا يرى في الوجود إلا وجود الواحد الأحد فعلاً وأسماء وشكواي إلى السائق لجوئي إلى الله عز وجل الذي ما زال صوتاً يقود السالك في رحلته الذاتية ، ولهذا كان السائق إشارة إلى الله ، وأكد هذا أن انقلب وجه السائق وجه امرأة إشارة إلى الذات ، وكون هذه المرأة محجبة إشارة إلى احتجاب الذات بالأسماء ، وكون عينها الواحدة عوراء إشارة إلى أحدية العين التي لا عين سواها في الوجود ظاهراً وباطناً ، فلا موجود سواه . وَرِقّة السائق لي ومنحه إياي المال كناية عن العلم اللدني الذي يتنزل من سماء الذات على قلب العارف ، فالعلم هو العوض عن وجوده الذي افتقده فما وجده ولهذا سمي صاحب هذا المقام الفاني .

والعلم اللدني تنزيل من علم الغيب الذي قال فيه سبحانه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾ . فثمة رجال مصطفون للإطلاع على ما يبدو من الغيب من سوانح .

والتنزيل تنزيل أسماء . وكنا تحدثنا من قبل عن أن آدم ما أهبط إلى الأرض إلا ليستفيد عقله الهيولاني شيئاً من صور العالم المادية . فالعقل في الأرض طفل يولد ثم ينمو ويكبر حتى يبلغ أشده ويستوي زرعه وسمينا هذه الزيادة في العقل عقلاً مستفاداً ، وقلنا إن الفلاسفة هم أكثر الناس استفادة من العقل المستفاد لأنهم وصلوا إلى تجريد المعقولات والاستفادة من لغة المعقولات بحيث اعتمدوا علم المنطق كله ، وهو علم خاص بالمعقولات المجردة ، فوضعوا ما وضعوا من مؤلفات . ولقد امتدح سلطان العارفين الفلسفة والفلاسفة فقال : الفلسفة معناها حب الحكمة ، وكل عاقل يحب الحكمة ، غير أن أهل الفكر خطؤهم في الإلهيات أكثر من إصابتهم .

فالفلسفة مرحلة من مراحل تطور العقل وهو في طريقه إلى الإلتحاق بالملأ الأعلى .

وفوق العقل المستفاد هناك درجة يبلغها العقل بإذن الله وتسمى العقل القدسي ، ورتبة هذا العقل أن الغيب هو الذي يعلم العقل . فالفارق بين إبن عربي وأرسطو أن أرسطو يعتمد عقله في حين أن ابن عربي يعتمد المكاشفات الذوقية وما يتنزل عليه من علم الغيب ولهذا قال في مقدمة أحد كتبه : وما أسجل في هذا المسطور إلا ما يملى علي ، ولست بنبي ولا رسول ولكني وارث ولآخرتي حارث . فأنت ترى كيف صار العقل فقيراً إلى درجة أن سلطان العارفين اعترف بأنه ليس أكثر من طالب يملى عليه ولهذا شكوت في الرؤ يا بأني فقير قضيت سنين أنتعل حذاء قديماً . فالعقل الذاتي هو أصلاً فقير مثلما أن الطفل فقير ، ثم لما قوي واغتنى ، مثلما قوي الطفل واشتد ساعده ، جاء الكشف فجرد السالك من الحول والطول ورده فقيراً من جديد .

وبعد فما هو علم الغيب ؟ إنه تنزلات المعقولات وهي مجردة تماماً من المحسوسات بعد أن بلغ العقل الذاتي درجة الاستغناء عن المحسوسات . لقد صار في خزانته معاني الخير والحق والجمال والشر والاعتدال وصارت له مفاهيم مجردة فدخل عالم الرياضيات التي هي كلها تجريد .

وذات الذات نور ولهذا احتاجت إلى صُور لتُعرف . والخيال عندما يكون صاعداً يكون تجريداً للمحسوس ، ولكنه عندما يكون نازلاً يكون تشبيهاً بالمحسوس ، ولهذا قلنا إن الإنسان ما امتاز عن الحيوان إلا بالخيال الذي هو عالم البرزخ بين المادة والروح . الإنسان نفسه كذات عاقلة هو أول تجريد للمادة ، ولقد جمع في كيانه عالمي الملك والشهادة ، فهو من جهة نفسه الحيوانية دابة من دواب الأرض ، وهو من جهة نفسه الناطقة ذات شريفة منبثة من الذات الكونية لتعرف هذه الذات ولتُلقن العلم منها .

ولقد سبق أن تحدثنا عن ضرورة تهذيب النفس لئلا ينطبع في مرآتها غير الصور الشريفة . تصور إنساناً ظالماً سادراً في غيه كيف يمكنه أن يتصور وجود

معقول اسمه الخير؟ وتصور بخيلاً شحيحاً كيف بوسعه أن يتمثل وجود معقول إسمه الكرم ؟ فالحجاب من فعل الإنسان . ولهذا تشددت الصوفية لكي تبلغ النفس درجة من السمو بحيث لا ينطبع فيها إلا المفاهيم الشريفة وعندئذ تبرز المعقولات من عالم الغيب فتقع مقارنة بين الاسم الجميل المتنزل من فوق مع مفهوم الجمال الصاعد من تحت فيلتقي النوران فتقدح شرارة تصير ناراً كما حدث لموسى فقال لأهله أمكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . وقلنا في تأويل هذه الآية من قبل أن أهل موسى العاقلة النظرية التي خلفها وراءه وقصد النار فلما جاءها نودي ﴿ إني انا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ . فالسالك سالك بلا عقل ، أي أنه لا يعتمد العقل وصولاً إلى الحقيقة ، فربه تولاه فهو الذي يعلمه . وسيد هذا المقام النبي يوسف عليه السلام الذي خص بسورة كاملة في كتاب الله . فيوسف ما تبوأ مكانته في الأرض إلا لأنه أحكم علم تعبير الرؤى وتأويل الأحاديث .

ولقد تحدث ابن سيرين عن علم التعبير وشروطه في مقدمة كتابه تفسير الأحلام فقال :

لما كانت الرؤيا جزءٍ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة لزم أن يكون المُعِّبر عالماً بكتاب الله ، حافظاً لحديث رسول الله ، خبيراً بلسان العرب واشتقاق الألفاظ ، عارفاً بهيئات الناس ، ضابطاً لأصول التمييز ، عفيف النفس ، طاهر الأخلاق ، صادق اللسان ليوفقه الله لما فيه الصواب ويهديه لمعرفة أولي الألباب . فإن الرؤيا تعبر باختلاف الأزمنة والأوقات ، فتارة تُعبر من كتاب الله تعالى ، وتارة تعبر من حديث الرسول ، وتارة تعبر من المثل السائر . . وربما صرفت عن الرائي إلى نظيره أو سميه . وقد تأول الرؤيا من لفظ الاسم مرة ، ومرة من ضده ، ومرة من اشتقاقه ، ومرة بالزيادة ، ومرة بالنقصان . فأما التأويل من القرآن فكالبيض يعبر عنه بالنسوة لقوله تعالى : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ ، وكالحجارة يعبر عنه بالقسوة لقوله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة ﴾ ، وكالمفاتيح يعبر عنها بالكنوز لقوله : ﴿ وآتيناه من

الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾ ، وكالسفينة يعبر عنها بالنجاة لقوله : ﴿ فأنجيناه ومن معه في الفلك ﴾ ، وكاللباس يعبر عنه بالنساء لقوله : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ ، وكالفأرة يعبر عنها بالمرأة الفاسقة لقوله ﷺ (الفأرة فاسقة) ، وكالضلع يعبر عنه بالمرأة لقوله : ﴿ المرأة خلقت من ضلع عوجاء ﴾ .

وأما التأويل من الأمثال فكالرجل يرى في يده طولاً فإنه يعبر باصطناع المعروف لقولهم (هذا أطول منك يدا وباعاً) ، أي أكثر منك عطاء ، وكالذي يرمي الناس بالحجارة يعبر عنه بأنه يذكر بسوء لقولهم (رمى فلان فلاناً وقذفه) .

أما التأويل بظاهر الاسم ، فكل رجل اسمه الفضل يعبر عنه بالفضل ، وراشد بالرشد، وسالم بالسلامة. وأما التأويل بالمعنى فمثل الورد يعبر عنه بقلة البقاء لذبوله سريعاً . وأما التأويل بالضد فمثل البكاء يعبر عنه بالفرح ، والفرح والضحك يعبر عنهما بحزن وهم . وأما السمك فإن عُرِف عدده فهو نساء ، وإن لم يعرف فهو مال وغنيمة . وأما اختلاف الناس وهيئاتهم مثل رجل يرى أنه مغلول اليد فإن كان سيماه الخير والدين فهو صلاح في حقه واجتناب المعاصي والفساد ، وإن كان سيماه ضد ذلك فهو كثير المعاصي من أهل النار .

إذن كتاب الله أحد الأسس التي يعتمدها المعبر عند التعبير . وبعد فما الذي نجده في كتاب الله ، وفي سورة يوسف بالذات من علاقة بالتعبير ؟ أولاً لقد استهلت السورة برؤية يوسف مناماً رأى فيه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين . وسبق أن قلنا إن الغزالي عَبَر الكواكب والشمس والقمر بأنها أنوار ، وأنت ترى معيار صدق الغزالي إذا ما قارنا تعبيره بأحاديثنا الدائرة كلها حول النور والأنوار . وبرزت موهبة يوسف وهو في السجن إذ كان معه فَتَيان رأى أحدهما أنه يعصر خمراً ، وقال الآخر إنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه فلما عبر يوسف منامي صاحبيه أتى بالعجب إذ قال للأول إنه يسقي ربه ـ أي سيده ـ خمراً ، ولدى التدقيق لا نجد ثمة علاقة بين أن يعصر

الفتى خمراً وبين أن يسقي سيده خمراً . فتعبير يوسف ما اعتمد هنا إلا الإلهام فقط، ثم إنه قال في تعبير منام الثاني وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه وأنت ترى أن التعبير لم يعتمد إلا الإلهام أيضاً. فلم يكون الخبز الذي رآه السجين فوق رأسه وهو رأسه ذاتها وقد صارت طعاماً للطيور ، ولماذا يصلب حتى تأكل الطير من رأسه ، ولماذا لا يكون التعبير مثلاً أن الخبز طعام ، وما دام على الرأس فهو طعام العقل فتكون الطير أرواح تستفيد مما في خزانة الرأس من علوم ؟

فالتعبير للصوفية لا يعتمد في المقام الأول إلا إلهام الخاطر الإلهي الذي هو أقرب إلى العبد من حبل الوريد . ولهذا كان تعبير العارف من مقام تعبير الأنبياء كما عبر عليه السلام اللبن بالفطرة .

لقد كان بدء أمري في التعبير أنني رأيت في رؤ يا النبي يوسف وقد ظهر في صورتين صورة شفافة وصورة متعينة ، ولقد أوتيت الصورتان حظهما من شطر الحسن الذي هو بحد ذاته دلالة على الألوان . . فما الحسن إلا الانسجام بين الألوان ، وما الألوان إلا ظهور للنور الجامع الذي هو عند تحليله مجموعة من الألوان كما هو معروف في علم الضوء .

وتعبير الرؤ يا أن يوسف صار يوسفين يوسف العين ويوسف العيان ، أما يوسف العين فهو الصورة وأما يوسف العيان فهو تعين الصورة أو ظهورها ، وكلتا الصورتين ضمهما قلبي الذي بلغ هذه المنزلة عند العروج . والعروج هو الأساس الثاني لعلم التعبير عند الصوفية . فما من عارف عرف إلا بَعْد أن عُرج به إلى السموات السبع حتى بلغ مقام قاب قوسين أو أدنى . والعروج كما رأينا سلم يبدأ من توحيد الفعل وينتهي بكشف الذات ، وتوحيد الفعل هو المجاز الأول لعالم الغيب ، فمن دون استشراف عالم الغيب لا قبلَ لأحد على الموقوف على حقيقة التوحيد . وبدء المعراج العروج من النفس الحيوانية إلى النفس اللوامة فالنفس المطمئنةفالراضية فالمرضية ،ويقال للمقام الذي اطلع القلب فيه على سر التوحيد مقام السر . وتعتمد الصوفية سلم المعراج هذا للتعبير لأنه ما من حال تكون فيه النفس إلا وهي صاعدة أو هابطة عليه . وما دامت الرؤ يا

كشفاً عن منزلة النفس في سلم المعراج كان تحديد هذه المنزلة أساساً لتعبير الرؤيا .

وسكت الشيخ برهة نظرني خلالها متأملاً ثم استطرد قائلاً :

ـ لكل ولي خاصة يا بني ، وكانت خاصتي تعبير الرؤى ، وهذه هي هبة الله لي . فكرامتي ، ولكل صوفي كرامة ، هي ما استخلص من رؤاي من تعابير هي مفتاح العلوم الماورائية التي استشغفت بها الغيب من وراء ستر رقيق . إن ما أراه من رؤى هو ما يخفيه الله من علم الغيب فاستخلصت منه أجوبة المسائل التي عالجتها الفلاسفة وذهبت في أمرها كل مذهب وركبت كل طريق .

علم التعبير يا بني وما يستنتج منه هو علم اليقين إذ لا يقين بعده ولا شك فيه ، فهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . إنه التنزلات التي سماها ابن عربي التنزلات الموصلية . فلا حقيقة إلا هذه لهذه الكعبة المنورة في قلب العارف حتى صار لسانه لسان حال الحقيقة ومظهرها .

وشرع الشيخ يساقط حب سبحته الكهرمان ، ثم تابع قائلاً :

ـ هل تذكر عندما قلت لي ذات يوم أنه من بعد أفلاطون وأرسطو لم تأت الفلاسفة بجديد فأشرت حينذاك إلى صدري قائلاً إن الحقيقة هي ههنا ولا حقيقة إلا هذه الحقيقة ؟ أنت عندما تقرأ تهافت الفلاسفة للغزالي تجد كيف دك الامام صروح الفلاسفة جميعاً . وقالت النقاد إن الغزالي يعد نقطة تحول حاسمة في تاريخ الفلسفة الاسلامية إذ وضع حداً لنظر العقلانيين ودعا لاعتماد القلب وسيلة لمعرفة الحقيقةوالحق أن الغزالي لم يلغ الفلسفة كفلسفة بل ألغى أسلوب النظر العقلي ونادى بشعار الذوق الصوفي وهو ما يسمى نور العرفان . فبهذا النور وحده يعرف العارف ما يريد الله له أن يعرف عن مقولات الوجود والعدم والقضاء والقدر والجبر والاختيار والمادة والروح والبعث والقيامة وعالم البرزخ والثواب والعقاب إلى آخر المسائل التي هي من صلب علم الفلسفة .

وهنا قلت للشيخ :

ـ لقد اختلف العلماء في القضاء والقدر فماذا تقول فيه يا سيدي ؟

ابتسم ابتسامته اللطيفة وهز رأسه وأجاب :

ـ القضاء هو التكوين ، هو الأمر الكائن بين الكاف والنون ، وهو اللوح المحفوظ في سماء المعقولات من قبل أن تفَّض مكنوناتها . . والقدر هو التفصيل وخروج ما في المعقولات من مقتضيات وهو الرق المنشور . فالقضاء مجموع الأينيات في اللاأين ومجموع الكيفيات في اللاكيف فهو البيضة النورانية من قبل أن تفقس عن الخلق فينتشر الخلق . قال تعالى : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ ، واليوم عنده سبحانه هو خمسون ألف سنة في تعدادنا وهذا هو حال العروج ، وقلنا العروج يقابل التنزيل فأنت ترى أن الزمان هو نشر الطي الأول . وقال سبحانه : ﴿ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ ، وقيل في التأويل حتى الخير والشر . فسر القضاء من أدق الأسرار ومن أثقلها . لقد سئل رسول الله : يا رسول الله بَيِّن لنا ديننا كآن خلقنا الآن ففيم العمل اليوم ، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل ؟ قال : لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير . قيل ففيم العمل ؟ قال : كل عامل ميسر لعمله . فكل ما يجري على مسرح الوجود كان مطوياً في اللاوجود، واللاوجود في اصطلاح القوم ليس العدم بل إمكان تعين الوجود . فاللاوجود يسبق الوجود ، والوجود انتشار ما هو مطوي في سجل اللاوجود فما خرج إلى التفصيل كان في التكوين ، لا تبديل لكلمات الله .

يشبه الأمر يا بني ما نراه على شاشة دار الخيالة من صور فالصور قصة ، والقصة مطبوعة على شريط محفوظ وموجود في غرفة الآلات ، فكل ما يقع قد قُضي فيه من قبل تحرك الزمان على مسرح المكان . . وما الحركة والمكان إلا وضع شريط الصور على آلة العرض ليظهر على الشاشة . هذه هي حقيقة القضاء ، ولقد سبق أن ذكرت لك رؤيا عن الممثل نور الشريف الذي يمثل على خشبة المسرح في مدينة السينما كل الأدوار ، فهو الذي أضحك وأبكى وأمات وأحيا وأمرض وشفا . وجاء في الحديث القدسي : ومنكم شقي وسعيد ، وجاء في الحديث : السعيد من سعد وهو في بطن أمه والشقي من شقي وهو في بطن

أمه . وقال عليه السلام في الغلام الذي قتله العبد الصالح أنه قد طبع كافراً . فبين الكاف والنون جرى القلم بقدر الغلام فطبعه كافراً ، والطبع للصورة ، والصورة موجودة في عالم الغيب من قبل الطبع في صحيفة الوجود . والعارف يطلع في أسرار اللوح المحفوظ فيعرف الأمر على الجملة وبالتفصيل . فما خرج إلى الوجود خرج من كون الأسماء ، وما يخرج من كوة الاسم هو ما عناه سبحانه بقوله : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا وهو آخذ بناصيتها ﴾ ، وعن رسول الله أنه كان جالساً ذات يوم وفي يده عود ينكت به فرفع رأسه وقال : ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار . قالوا يا رسول الله فلم نعمل أفلا نتكل ، قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له . فأنت ترى أن القدر انتشار الأنوار المتعينة بعد البث من كوى الأسماء لتحقيق قضائها . فالعارف باطلاعه لوحة جميعة الأسماء يعرف في لحظات ما لا يتاح للناظر العقلي أن يعرفه في سنين . فالعارف رأى النور بالنور فأدرك المضمر والعلن والمطوي والمنشور .

وأخذ الشيخ نفساً عميقاً قبل أن يتابع قائلاً :

ـ أما الراحة التي تحصل من هذه المعرفة فلا يحيط بها وصف . فالأمور تجري لأوقاتها ، وما يحدث الآن قد قُضي في اللازمان ، وما الزمان إلا تحريك الساكن على سكة صراط محددة . قال سبحانه : ﴿ ما أصابكم من مصيبة إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ ، فما يعمل الإنسان من عمل ولا يصيبه من خير وشر إلا وهو مسطور في سجل القضاء من قبل التعين . لقد سأل عليه السلام نساءه : أيتكن تنبحها كلاب الحوأب ؟ فلما خرجت السيدة عائشة مع طلحة والزبير في وقعة الجمل لقتال علي ووصلت المنطقة المسماة الحوأب وسمعت نباح الكلاب تذكرت مقالة النبي فاقشعرت وخافت وهمت بالرجوع . ولما بكت فاطمة والنبي في النزع أسّر إليها أمراً أذهب ما بها من حزن وكان ما أسرّه إليها أنها أول أهله لحوقاً به فتوفيت فاطمة بعد وفاة النبي ببضع شهور . وفي كتاب الله جاء : غُلبت الروم ، وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون ، فالروم ستغلب أولاً ثم تغلِب بدورها . ولو أننا تأملنا حقيقة كهذه لأدركنا معنى قوله تعالى وما أصاب من مصيبة إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . ومن هذه القاعدة الايمانية

بحقيقة القضاء والقدر انطلق المسلمون في فتوحاتهم حتى وصلوا أقاصي المشرق والمغرب في غضون بضعة عشر عاماً . لقد وصف صوفي كان يجاهد في سبيل الله كيف ألقاه عدوه أرضاً وجلس على صدره ورفع سيفه ليضربه وهو شاخص البصر إلى عدوه ينتظر قضاء الله فإذا سهم يصيب عدوه في صدره فيرديه قتيلاً وينهض هو من تحته قائلاً : فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون .

الراحة يا بني تحصل من الركون إلى تصاريف القضاء التي لا ينفك من أسرها مخلوق . فما نقش في لوح القضاء آت لا ريب فيه . والرضا بقضاء الله خيره وشره هو ما يبعث على هذه الراحة . ولهذا الرضا علاقة بالتوكل حين يعي المؤمن إن الله بيده الأسباب الداعية للأرزاق وإن لكل نفس رزقها ، وإن رسول الله قال : رزق تطلب ورزق يطلبك ولا تستوفي نفس أجلها حتى تستوفي رزقها . وليس هذا مدعاة لترك الأسباب كما اتهمت الصوفية فلقد قلنا إن للصوفية شأنهم وأحوالهم التي لا تنطبق على بقية العباد . . ولكن المؤمن يؤمن بأن رزقه آتيه كائناً ما كانت الأسباب ، وأن ما كان له ما كان لأحد أن يمنعه منه وإن ما ليس له ما كان لأحد أن يجعله له . فشعار المؤمن في التوكل السعي قدر المستطاع مع الإيمان بحديث النبي عليه السلام : لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتؤوب بطاناً .

إن عقيدة كهذه تذهب عن قلب الإنسان الهم والغم والحزن والخوف من الموت واليأس مما في قبضة الزمان .

وسكت الشيخ قليلاً شخص خلاله طرفه ثم استطرد قائلاً بصوت شاع فيه الحزن :

- لم تكن أم يحيى يعيش لها ولد . إن وضعت ذكراً لم يعمر عاماً أو بعض العام فيتوفى ، فلما حملت بيحيى رأيت في المنام أنها وضعت ذكراً وأن اسمه يحيى ، فانتبهت من النوم وجعلت أعبُر الرؤيا ، ثم بشرت أهلي بيحيى وأنه

سيحيا . لقد أطلعت أهلي على نصف التعبير أما النصف الآخر فلقد احتفظت به سراً لنفسي .

وجمدت عيناه هينهات وهو ينظر الفراغ ثم تابع بصوت خفيض لكنه عميق كأنه صادر من قاع بئر : لقد علمت أيضاً أن يحيى سيتوفى وهو شاب لأن النبي يحيى عليه السلام لم يعمر طويلاً وقضى بأن قطع الحاكم الروماني رأسه بعد أن استجاب لطلب الراقصة اليهودية سالومي .

كان وجهه قد تغير ، لقد كساه الحزن بطابعه العميق فبرزت بشدة غضون الجبهة وتجاعيد الوجه كما أن العينين ظهرتا زجاجتين . . لأول مرة أرى الشيخ حزيناً على فراق ولده منذ . . منذ الليلة التي عزيته فيها بوفاته .

كان جالساً محني الظهر ، وقد هدته السنون والمصيبة التي تقصم الظهر . . وما لبث أن رفع رأسه ونظر إلي وقال وفي عينيه دمع يومض :

ـ لي بخير الخلق أسوة وعزاء . فالنبي لم يعمر له ولد . لقد توفي أولاده الذكور وهم صغار الواحد تلو الآخر . . أما بناته فلقد قبضن إلى رحمة الله جيمعاً في حياته ما عدا فاطمة التي أسرّ إليها وهو في النزع بأنها أول أهله لحوقاً به . فإذا كان النبي ، وهو أكرم خلق الله ، قد دفن أولاده ذكوراً وإناثاً ما عدا فاطمة ، فما قولي أنا ؟ إنها مشيئة الله التي قضت بأن تحمي عبده الصالح الدنيا كما نحمي المريض الطعام والشراب نخاف عليه . . سبحانه هو الغيور الذي لا يريد لعبده أن يعلق زوجاً ولا ولداً ولا مالاً ولا جاهاً بعد أن اصطفاه واصطنعه لنفسه وهنا قلت للشيخ معزياً :

ـ إنه في الجنة يا سيدي . . هو من شباب أهل الجنة .

رمقتني بنظرته الشعاعية وقال :

ـ بمناسبة الحديث عن الجنة أذكر رؤ يا رأيتها عن صديق لي كان شاعراً وصالحاً وقد توفي منذ سنين . رأيت ذات ليلة في المنام وقد دخل سينما أمير وجلس في مدخلها وكان يبدو على وجهه السرور والانشراح . والتعبير أن

صديقي شاعر ، والشاعر إشارة إلى الشعور أو النفس ، وكونه صالحاً يعني أنه من أهل اليمين ودخوله السينما وهي دار الخيالة إشارة إلى دخوله عالم البرزخ بانتقال روحه إليه ، إذ دار الخيالة خيال والخيال برزخ . واسم دار الخيالة أمير إشارة إلى أن روح صديقي هي من صفوف الأرواح الأولى ، والأرواح جند مجندة وهي طبقات ، والجنة درجات يا بني والجنة العليا هي الحيوان ، والحيوان الحياة ، والحياة اسمه الحي ، فأعلى درجة من الجنان ما قرب من ذاته تعالى وهو الحي القيوم ، ثم يلي بعد ذلك درجات ، وهي أنوار ، فصديقي وصل درجة الأمارة وعاش هناك حياة طيبة إذ صار من الملأ الأعلى . وهم ملائكة العرش المقربون والذين هم أنوار محضة . لقد قلت أنت إن يحيى في الجنة ، ولعل الله أنطقك بهذا ، وقلت إنه من شباب أهل الجنة وأسأل الله أن تكون روحه كذلك .

وداعب الشيخ سبحته قليلاً ثم استدرك قائلاً :

وأما ما أشار إليه الشيخ الأكبر بأن أهل العذاب في عذوبه فليس لهذا علاقة بالآخرة . فالشيخ الأكبر تحدث عن وضع أهل النار في هذه الحياة الدنيا ، وقلنا إن الانسجام بين العلة والمعلول يجعل أهل العذاب في عذوبه للتجانس . . أما في الآخرة فمن كانت هيئته نارية صار إلى رماد ، وكل نار مصيرها الرماد . لقد رأيت ذات ليلة رجلاً شريراً قد قبض على فأرة وجعلها في صندوق وأقفل الصندوق عليها ثم أشعل النار في الصندوق ، فجعلت الفأرة تصدي وتحاول الخروج وتئن ، فقلت للرجل هذا ظلم وجور ، إن كنت تريد قتلها فلم تعذبها ؟ والفأرة سماها النبي فاسقة أو فويسقة ، والفاسق من خرج على أمر به ، فالإشارة إذن إلى النفس الفاسقة . والرؤ يا دلت على أن من كانت نفسه من جنس طبيعة البهائم فمآله إلى العدم ، أما من كانت نفسه شريفة ومن معدن الأنوار فهي ستلتحق بعالم الأنوار .